رأيت فى أفغانستان

بقلم عبد الحميد الكاتب

« كاتب هذا المقال هو الأستاذ عبد الحميد عبد الغنى ، وهو من رجال السلك السياسى المصرى ، وقد اقتضاه عمله أن يقضى فى أفغانستان فترة ما ، أتيح له فيها أن يعرفها، وأن يكتب عنها، ونحن ننشر فى هذا الكتيب مقاله هذا كما أنشأه، ليكون تعبيراً صحيحاً عن إحساس كاتبه بما رأى وما عرف من شئون تلك البلاد »

كابل :

ما أحسب أن هناك بلداً جوهره خير من مظهره ، مثل أفغانستان !

فكل بلد يعنى بأن يظهر لمن يعبر به أجمل ما فيه ، ويخفى أقبح ما فيه . . . إلا هذه البلاد . . . فليس يعنيها أن يرضى عنها الأجنبي الذى يمر بها مراً عاجلا ، وليس يعنيها أن يطلق لسانه فيها بما يشاء ، وكأنها الرجل الواثق من نفسه ، المطمئن إلى قوته ، فلا يرى بأساً فى أن يبدو أمام الناس فى ثوب مهلهل أو مرتوق !

انظر إلى بيوتها مثلا . . . فعندما دخلت مدينة كابل أول مرة ، وتجولت فى أنحائها قليلا ، وجدت أكثر طرقها ضيقة ، متربة ، تتعالى فيها الأحجار ، وتتناثر فى جوها الأتربة ، وتمتد على جانبيها

جدران واطئة من اللبن ، فيها فتحات ضيقة نصبت عليها أبواب خشبية صغيرة !

فلم يخالجنى الشك فى أن هذه الجدران لا يمكن أن تخفى وراءها إلا أكواخاً حقيرة من اللبن . . . فرشت أرضها بالحصير الخشن . . . ونام فيها الناس على مصاطب من الطوب ، واستضاءوا بذبالة توقد بالزيت أو الجاز . . . وشربوا واستحموا بماء الآبار يغترفونه بكوز من الصفيح ؛

هذا هو ما تصورته أول ما دخلت المدينة وجست خلالها . . . ولكنى ما كدت أدخل بابا من هذه الأبواب الخشبية الصغيرة ، ذات الأقفال الحديدية الصدئة ، حتى ألفيت نفسى وسط بستان ناضر من الزهر والثمر . . . يكتنف بيتاً بنى على أحدث طراز ، وأثث بأجمل أثاث . . . قد انتثرت فيه الأرائك من المخمل والجلد ، وبسطت فيه السجاجيد الوثيرة التى افتنوا فى نسجها وزخرفها ، ونسقت فيه المائدة أجمل تنسيق ، وصفت عليها أدوات السرفيس كما تصف فى أحسن الفنادق . . . وأضىء البيت بالكهرباء . . . ومرت فيه الأنابيب تحمل الماء العذب من ضاحية « بغمان » النائية !

وليست بيوت كابل جميعاً من هذا الطراز ، ولكن هذه بيوت أغنيائهم الموسرين . . . أما بيوت الطبقة الوسطى من أهل البلاد ، الذين لا يستريحون إلى الجلوس على المقاعد ، والأكل على الموائد ،

فإنك تراهم بها يفترشون أرضاً كسيت بالسجاد الجميل والوسائد الأنيقة، وترى فيها كل أسباب الراحة ميسورة موفورة .

مظهر الأفغانى لا يدل على جوهره

والأفغانى مثل بيته : مظهره لا يدل على جوهره . وباطنه خير من ظاهره !

إنه يبدو لك أول الأمر رجلا جافاً . جامداً كأنه قد من جبال بلاده الصماء . . وتراه ينظر إليك . وإلى كل أجنبى عن بلاده ، نظرة خوف وتوجس . ولا يكاد يسير الأجنبى فى أفغانستان إلا وأنظار الناس متشوفة إليه فى دهشة وتساؤل ، ملقاة عليه فى تعجب واستغراب . ولا يكاد يدخل متجراً إلا تجمع أفراد من الناس أمام الباب ينظرون إليه ويتساءلون : ماذا يشترى ؟ وكيف يتكلم ؟ وكم يدفع ؟

والأفغانى غريب فى هذا . . . فإن دهشته من رؤية الأجنبى تشبه أحياناً نفسه ، فتراه واقفاً أمام هذا الأجنبى وجها لوجه ، محملقاً فيه بعينين واسعتين ، كأن هذا الأجنبى شىء يستحق التطلع والمشاهدة . . . وقد يلتفت الأفغانى إلى من حوله من المتفرجين ويأخذون فى الحديث عن هذا الأجنبى ، كأنهم اكتشفوا أنه خلق آخر ، يختلف عنهم كل الاختلاف !

ولا ترجع دهشة الأفغانى من رؤية الأجنبى إلى قلة الأجانب فى بلادهم ، ففى كابل مئات . وفى هرات وقندهار وجلال آباد عشرات من الأمريكيين والأمريكيات . والأوربيين والأوربيات ، يعملون مهندسين لرصف الطرق وإقامة خزانات المياه ، أو مدرسين وأطباء فى كليات الجامعة الأربع ، أو وكلاء للمؤسسات التجارية الأجنبية . . . وذلك فضلا عن رجال السفارات والمفوضيات هناك ، ففى كابل اليوم خمس عشرة بعثة دبلوماسية ، منها أربع عربيات ، وهى المصرية والسعودية والعراقية والأردنية . . . والواقع أن حكومة أفغانستان تبذل جهداً كبيراً ، ومالا جزيلا فى سبيل استقدام هؤلاء الخبراء الأجانب ليعملوا فى تعمير البلاد وترقيتها .

وإنما ترجع دهشة الأفغانى من رؤية الأجنبى ، إلى أن بلاده قد غزاها الأجانب مراراً طوال التاريخ ، فصار يرتاب فى الأجنبى ويتوجس منه خيفة ، وأخذ ينظر إليه نظرة الشك ، والحذر والإشفاق ، أما إذا عرفه ، واطمأن إليه ، ووثق منه ، تبدى هذا الأفغانى على حقيقته . . . رجلا ما يزال على فطرته الأولى ، لم تنل منه المدنية ولم تفسده الحضارة ، بل ظل كما كان الناس قديماً . . . كريماً ، وفياً ، صريحاً ، شجاعاً ، مؤمناً ، مخلصاً ، محبا للحرية ، متأهبا لبذل دمه فى سبيلها . . . وعلى الجملة ما يزال جوهر الأفغانى سليما ، لم تفسده هذه الحياة الحضرية التى تضطر الإنسان المتمدين إلى

كثير من أساليب المكر الذى يبلغ حد الخبث ، والحذر الذى ينحدر إلى الجبن ، والمجاملة التى تؤدى بالمرء إلى الاستكانة .

موقع أفغانستان يجعلها هدفاً للفاتحين

وقد غزيت أفغانستان مراراً منذ بداية التاريخ برغم وعورة جبالها ، لا طمعاً فى ارضها ، ولا سعيا وراء خيرها ، بل لأنها تحتل مكانا جغرافياً عجيباً يجعلها هدفا للغزاة والفاتحين ؛ فكل فاتح طمحت نفسه إلى امتلاك الهند ، تلك البلاد الفسيحة الخصيبة السخية ، فكر أولا فى أن يضع يده على مفتاح بابها ، أى على أفغانستان ، التى لا منفذ للهند إلا عن طريقها .

فالإسكندر المقدونى أراد أن يسير إلى الهند ، فسار أولا إلى أفغانستان ، واخترق على ظهور الجياد جبالها الوعرة ، وصخورها الصماء ، التى تلتهب بالحرارة صيفاً وتكتسى بالثلوج شتاء . . . ثم نفذ منها إلى سهول الهند الخصبة ففتحها . . . ثم اقتسم خلفاؤه هذه المملكة الواسعة التى شادها ، فأقام أحدهم فى أفغانستان دولة يونانية عمرت طويلا ، وما زالت آثارها باقية فى متاحف أفغانستان وحفرياتها .

وغزاها العرب فى صدر الإسلام ، وحولوا أهلها من عبادة أصنام بوذا ونيران زرادشت ، إلى عبادة الله الواحد الأحد . . . فصاروا أكثر الناس تعصباً للإسلام ، ولا يوجد بين الأفغان جميعاً — وعددهم

اثنا عشر مليون نسمة — إلا بضعة الآف من الهندوس واليهود يعملون فى التجارة . . . أما الباقون فمسلمون ، مسلمون متدينون إلى حد كبير . . ولا يكاد الأفغانى الذى يعيش بعيدا عن المدن يجاوز سن الحلم ، حتى تتدلى على وجهه لحية طويلة ، وتتدلى بين أصابعه مسبحة طويلة !

وأكثر أفغانستان هو ما كان يعرف باسم خراسان التى قامت فيها حضارة إسلامية عظيمة ، والتى أنجبت أبا مسلم الخراسانى .

وشهدت أفغانستان الطاغية جنكيز خان وهو يهب من أواسط آسيا فيجتاح سهولها وجبالها اجتياح العاصفة الهوجاء ... ومرت بها خيوله فلم تترك بها أخضر ولا يابساً ولم ترحم فيها أرملة ولا عانساً .

وعند ما هم المسلمون بفتح الهند وامتلاكها كانت أرض أفغانستان مسرحاً للجيوش وميداناً للقتال . فمنها انبعث السلطان محمود الغزنوى إلى الهند ففتح مناطقها الشمالية ونشر فيها الإسلام . وما تزال أطلال عاصمته ، مدينة غزنى ، تروى بأبراجها وأسوارها ، وبقبره وقبر أبيه ، « السلطان سبكتكين » قصة هذا المجد الذى عفى عليه الدهر . . و « بابر » هذا الفاتح المغولى الجبار الذى أقام دولة المسلمين فى الهند ، كرت وفرت فرسانه وأفياله مراراً بين الهند وأفغانستان . . . ولكنه اختار مقره الأخير فى كابل ، فأوصى بأن يدفن فيها وسط تلك الحديقة الجميلة المسماة باسم حديقة بابر .

الأفغان بين الإنجليز والروس

ونشبت الحروب فى التاريخ الحديث مراراً بين الأفغان والروس ، وبين الأفغان والإنجليز .

أما الروس فقد اقتطعوا من أفغانستان بعضاً من أرضها ؛ وتقع اليوم داخل حدود روسيا مدينة بخارى وسمرقند وسواهما من البلاد الإسلامية التليدة التى أنجبت كثيراً من علماء الإسلام ومفكريه ، وحسبنا أن نذكر منهم الإمام البخارى والعلامة البيرونى ، وأبو مسلم الخراسانى ، وابن سينا .

مفتاح الهند

أما الإنجليز فقد تبينوا منذ البداية أن أفغانستان هى مفتاح الهند ، إن لم يسيطروا عليها لم يأمنوا على أنفسهم فى الهند . . . فقامت الحروب بينهم وبين الأفغان مراراً ، وتشابكت جنودهما فى هذه المسارب الجبلية الوعرة الرهيبة . . . فانتهت الحروب الثلاث بينهما بالهزائم المتوالية ، منيت بها الجيوش الإنجليزية التى لا قبل لها بقتال القبائل الأفغانية المحاربة ، وما يزال قوس النصر القائم فى ضاحية بغمان شاهداً على آخر هزيمة أنزلها الأفغان بالإنجليز .

وهذه الغزوات المدمرة التى تتابعت على أفغانستان على مر التاريخ ، هى التى ولدت فى أبنائها خلق الحذر من الأجنبى ، والشك فى نواياه ،

فلا يسير إلا وأنظار الناس ترمقه من كل جانب ! . . وكثيراً ما رأيت الفتيات الأمريكيات يطلقن ضحكاتهن المرحة العالية . عندما يلتف حولهن جمع من الأفغان . فيتفرسون فى وجوههن ولباسهن . ويتهامسون فيما بينهم برأيهم فى هؤلاء الأجنبيات السافرات ، الضاحكات !

وقد أكبرت شيئاً فى الأفغان . هو أنهم لا ينظرون إلى الأجانب على أنهم أفضل منهم وأرقى . كما هو شأن كثير من الشعوب التى غزيت كثيراً واستغلت طويلا فغدت تحسب كل أجنبى خيراً منها دما وخلقا وذكاء . . بل إن الأفغانى يعتقد فى قرارة نفسه اعتقادا يحسبه بعض الناس غفلة وغروراً . أنه من أرقى شعوب العالم جميعاً ، ومن أقواها جسما ، وأصفاها طبعاً ، وأذكاها فؤادا . . ويرى أن تأخره فى مظاهر الحضارة لا يرجع إلى نقص فى طبيعته ، بل إلى الوضع الجغرافى لبلاده مما عزلها عن العالم وراء جبالها الشماء ، ومما عرضها لكثير من الغزوات الأجنبية والثورات الداخلية .

أنفة الأفغانى

ولعل الحادثة التالية تدل على مدى اعتداد الأفغانى بنفسه اعتداداً يصل إلى حد الكبرياء . وإعجابه ببلده إعجاباً يبلغ مبلغ التقديس ؛ فالقانون الأفغانى هو الشريعة الإسلامية التى تقول إن من قتل يقتل ، ولكن من عفا وأصلح فأجره على الله . فالقاتل فى

أفغانستان يحكم عليه بالإعدام . ثم يترك الأمر لأهل القتيل ، فينفذون فيه حكم الإعدام إن شاءوا ، أو يعفون عنه إن أرادوا ؛ لقاء دية يأخذونها ، أو احتسابا لوجه الله . وقد حدث ذات يوم أن إيطالياً قتل أفغانيا ، وأقر بجرمه ، وحكم عليه بالإعدام ، وسلم القاتل لوالد القتيل ليزهق روحه بنفسه ، وجاء الأب ، واجتمع الأهل والناس ؛ وألقى الإيطالى على الأرض ، ومد عنقه تأهبا لذبحه ، وأخذ الرجل السكين وشحذه ، وشمر عن ساعده ، وشرع يأخذ بدم ابنه . . ومر بالسكين على عنق الإيطالى هونا . . ثم التفت إلى من حوله وقال : ولكنى إن ذبحته أسلت دمه على أرض بلادى . . وما أحب أن ألوث هذه الأرض الطاهرة بدم هذا الكافر اللعين !

ولكن الحكومة نابت عن أهل القتيل فى أخذ الثأر فأعدمت القاتل .

ومن علامات أنفة الأفغانى وشممه أنك قلما ترى شحاذا فى هذه البلاد الفقيرة الجرداء . . وكأنه يؤثر أن يموت جوعاً على أن يمد يده للناس متسولا متوسلا . . بينما ترى فى الهند ؛ حيث الأرض الخصبة والخير الموفور ؛ أسراب الشحاذين ومواكبهم تزحم الطرق وتطارد المارة !

رياضة رهيبة

والأفغانى من أقوى الناس جسما وأشجعهم قلباً ؛ ولهذا فإن

رياضتهم المحبوبة هى سباق « البوزكاشى » الرهيب . . إذ يجتمع لفيف كبير من فرسانهم على ظهور جيادهم الأصيلة ؛ ويأتون بخروف فيذبحونه ويضعونه فى حفرة وسط حلقة السباق ؛ ثم يندفع الفرسان على صهوات الجياد حول هذه الحفرة ليختطف كل منهم الخروف . . ثم يتدافعون من حول هذا الذى اختطفه ؛ وكل منهم ممسك بزمام فرسه بيد ؛ محاولا أخذ الخروف بيده الأخرى . . وهى رياضة ممتعة حقا ؛ تسمع فيها الجياد تصهل ، والفرسان يصيحون ، والغبار يملأ الجو ، والناس من حولهم يتطلعون فى لهفة إلى من يفوز بالخروف أخيراً . . وكثيراً ما يقع فى هذه الرياضة بعض القتلى ؛ ومع هذا فهى رياضتهم المحبوبة !

والأفغانى الأصيل يقول لك بزهو : نحن أبناء الجنس الآرى ، هذا الجنس الذى زعم هتلر ؛ وزعم من قبله هوستن تشمبرلين وروزنبرج ، أنه أرقى أجناس العالم خلقاً ؛ وأسواها جسما ؛ وألمعها ذكاء ؛ وأقدرها على الابتكار .

والواقع أن الافغانى أقرب صلة إلى الأصل الآرى من الألمانى . . والملامح الآرية أكثر وضوحاً فيه منها فى أى شخص آخر ؛ فهو على الجملة أبيض البشرة ؛ مستطيل الرأس ؛ سبط الشعر ؛ دقيق الأنف ؛ مطبق الشفتين ؛ طويل القامة نحيفها . ذلك أن منشأ الجنس الآرى هو الإقليم الشمالى من الهند ؛ ومنه انبعث مهاجراً صوب الغرب ؛ ماراً

سباق «البوزكاش» رياضة أفغانستان المحبوبة